عـــــــــــزاؤنـــا

ليس لزامًا أن يحبَّ المرءُ سمير قصير أو جورج حاوي، أو أن يكون عضوًا في «حركة اليسار الديموقراطي» أو الحزب الشيوعي، لكي يَذْرف الدمعَ أمام سيّارتيْهما المتفجّرتيْن في الأشرفية ووطى المصيطبة.

لو سألني أحدٌ لأجبْتُ بأنّني لم أكن أحبُّ كثيراً ما كان يكتبه الشهيد سمير قصير في جريدة النهار، ولكنّني كنتُ معجبًا بجرأته غير العادية. ومع ذلك، فقد كان يُغيظني أن تقتصرَ جرأتُه على انتقاد البعث في سورية والعراق، وعلى انتقاد بعضِ أطراف الحكم والمعارضة في لبنان دون غيرهم ممّن يستحقّ الانتقادَ بل والتقريعَ. فالحال أنّ جرأة قصير غيرَ العادية لم تطاولْ، للأسف، أو لم تطاولْ بالحدّة نفسها في أحسن الأحوال، قامعين عربًا آخرين أمثالَ المتربّعين على أنظمة الخليج، ولا أصحابَ التسويات المخادعة كقادة أوسلو، ولا الشخصيات اللبنانية العامّةَ المعجونةَ بالعنصرية والطائفية والتفوُّقية كبعض «زملائه» في جريدة النهار. هناك أولويات، يقول البعضُ؟ حسنًا، ولكنْ لِمَ تكونُ الأولويةُ لنقد مهدي دخل اللّه وفاروق الشرع وبعث العراق وحزب اللّه وحماس والنائب السابق ناصر قنديل، ولا تكون لنقد قرنة شهوان وياسر عرفات وجورج بوش الصغير وخادمِ الحرميْن والسياسة الحريرية و«الاشتراكية» الجنبلاطية والنائبِ المنتخب جبران تويني؟ ولماذا، أصلاً، يرتضي المثقفون منطقَ «الأولويات» إنْ كان ثمةَ أكثرُ من طرف يَسْتبيح كراماتنا ويتناوب على هزيمتنا وتهميشنا إلى الأبد؟

غير أنّي، رغم ذلك، كنتُ أنتظر يومَ الجمعة لأقرأ النهار، وغالبًا لأقرأ زاويتَه فقط. كنتُ أَسْتمتع بأناقته في التعبير التي تُشْبه أناقةَ مظهره، وأَسْتمتع بسخريته المرّة، وبتمييزه القاطع دومًا بين النظام المنتَقَد والشعبِ الخاضع له. أستمتع بذلك كلّه، ثم أغضب لأنّ سمير قصير لا يرى، أو لا يريد أن يرى، الخطايا التي يرتكبها آخرون، حتى صارَ يَهْجس بالبعثِ وحزبِ اللّه. أستمتع ثم أغضب، فأعِدُ نفسي ـ كلَّ جمعة ـ بألاّ أزعجَها بعدَ اليوم بقراءة مقالاته. لكنْ حين يحلُّ الجمعةُ، أتسلَّل إلى رفّ الجرائد في المقهى أو النادي الرياضي، فأقرأهُ خفيةً عن نفسي مخافةَ أن أَضْبطَها «متلبِّسةً» بأفكارِه المغْرية... لكنْ غيرِ الكاملة.

واليومَ، اليومَ فقط، أُدرك أنّ جزءًا من مشروعنا، الذي أَسْمَيْناه «العروبةَ الجديدةَ» قبل أعوام، لا بدّ أن يكون قد تأثّر ـ ولو عن غير وعيٍ منّا ـ بكتاباتِ وأحاديثِ وخطبِ سمير قصير، وإنْ باتجاهاتٍ مغايرةٍ بعضَ الشيء: أكثرَ يساريةً (أيْ أقلَّ «ليبراليةً»)، وأعمقَ اهتمامًا بـ«الإثنيات» داخل الوطن العربي، وأشدَّ انشغالاً بهمومِ دولِ المغرب العربي (كتّابُ جريدة النهار الأساسيون، بالمناسبة، وعلى رأسهم المطران جورج خضر، يؤْثرون التركيزَ على «المشرق العربي»)، وأوسعَ ارتباطًا بالحركات الجذرية المناهضة للعولمة الرأسمالية، وأقوى إصرارًا على توسيعِ النقدِ لِيَشْمل جميعَ الأنظمة العربية؛ كلُّ ذلك دون التخلّي عن هدف تحرير كاملِ فلسطين، من النهر إلى البحر، مهما طال الزمان، أو بدا ذلك غيرَ «واقعيّ» اليومَ.

أما جورج حاوي فكانَ (كانَ؟) يَبْهرنا بحضوره القويّ، واطّلاعه الواسع؛ وقد لا يكون من المبالغة القولُ إنّه ـ مع عزمي بشارة ـ أوسعُ سياسيي الوطن العربي ثقافةً. «مدرَعةٌ فكريةٌ» هو أبو أنيس، بالمعنى النبيل الراقي: دبّابةٌ من الشواهد التاريخية والاستشهادات الشعرية، وجيشٌ من الفلاسفة والقادة والأدباء، يُرَفْرفُ عليهم بيْرقٌ من الذّكاء وسرعة البديهة والنكتة الحاضرة. مكتنزًا كان أبو أنيس بالشَّحمِ واللّحم والعلمِ والخبرةِ والقيادة والظّرف والديالكتيك. وآه من الديالكتيك الذي كثيرًا ما كان يَسْتخدمه الشهيد أبو أنيس لِيُطابقَ بين أمريْن لا يُمْكن أن «يرْكبا» على قوسِ قُزَح!

كان جورج حاوي أبًا لنا، نحن مَنْ بَدأْنا خربشاتنا «السياسية» في العشرينات من أعمارنا، عشّاقًا لفلسطين والكادحين. كانت خطَبُه، وصورتُه، ونبرتُه العاليةُ، ورفرفةُ غُرّته عند إعلان «الموقف الصحيح،» وثقتُه التي تتفجّر بها عروقُ وجههِ ورقبته، تُلْهِمُنا

جميعًا، أثناءَ الاجتياح الإسرائيلي عامَ ١٩٨٢، في كلِّ ما نَفْعله: قتالاً (رَحم اللّه رفيقَنا «نعْمان»)، أو حراسةً، أو تدرُّبًا على حملِ السِّلاح، أو تحصينًا للمتاريس، أو إسعافًا للجَرْحى، أو توزيعًا للطعامِ والماءِ على مقاتلي القوات الفلسطينية ـ اللبنانية المشتركة (اللّه يا زمان!) عند كافّة «الثغور» المتقدّمة في مواجهةِ جيشِ شارون.

ومن خسارتنا في أيلول ١٩٨٢ استلَّ جورج حاوي سلاحَ النصر، فأَطْلق مع محسن إبراهيم (أمينِ عامِّ منظمة العمل الشيوعي) «جبهةَ المقاومة الوطنية اللبنانية» ضدّ الاحتلال الإسرائيلي لبيروت ولبنان عامةً. واليومَ، وبغضّ النظر عمَّن قتل الشهيد جورج حاوي، فإنَّ أبا أنيس يبقى، دون أدنى ريْب، أعظمَ شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية التي تَكَلّلتْ بالنصر في ٢٥ أيّار ٢٠٠٠ ـ وإنْ بقيادةٍ لبنانيةٍ وطنيةٍ أُخرى.

ولكنْ في خضمّ المقاومة، في الجنوب والجبل، وهنا وهناك، بدأ الاستياءُ يتسرَّب إلى نفوسنا. وكان أوّلَ ما أغاظنا مفهومُ «الطائفة الوطنية» الذي فَبْرَكه الشهيدُ جورج حاوي أثناء حربِ الجبل ضدّ «القوات اللبنانية» في أوائل الثمانينيات. طائفة... ووطنية، رُحْنا نتساءل، كيف ذلك؟ وبعد تنازُل حاوي عن قيادة الحزب الشيوعي، توالَت انفتاحاتُه المفاجئةُ والمتعدّدةُ الأبعاد على أطرافٍ وأنظمة عربيةٍ لم تحظَ يومًا بثقتنا. إلى أن صَعَقَنا بتقارُبه الأخير مع «قرنة شهوان،» الطائفيةِ التكوينِ والأهداف، بحجّة «المصالحة الوطنية» التي نَظَّرَ لها الشهيد جورج، وبالماركسيّة أحيانًا؛ في حين لم نرَها إلاّ سعيًا إلى تجديد دماء الطبقة السياسية السائدة ببعض «المعارضين» على حساب الشباب الطامحِ إلى التغيير الجذري، ولم نعتبرْها إلاّ نفاقًا لكونها لم ترْتكزْ إلى نقدٍ ذاتيّ حقيقيّ يبرِّر صدقيّةَ مختلف أطرافها المتحوِّلة! وكان آخرَ ما صَدَمنا من مواقف الشهيد حاوي، نحن الذين مازلنا متمسّكين بمفردات اللغة «الخشبية» مثل «فصلِ الدينِ عن الدولة،» ما خطَّه بيده عشيّةَ اغتياله ونَشرَتْه الرأيُ العامُّ الكويتية، حين صَرَّحَ بالآتي: «عانى المسيحيون في لبنان منذ [مؤتمر] الطائف حالةَ تهميشٍ، ومرحلةَ هيمنةٍ فئويةٍ على حسابهم... لقد تمّ تنصيبُ ممثِّلين مزيَّفين عنهم في السلطة وفي المجلس النيابي، لولا قلَّةٌ ممَّن التقَوْا في إطارِ قرنة شهوان يَسْتظلّون عمامةَ البطريرك [!] ويَسْتلهمونَ بياناتِ المطارنة [!]»

أيّاً يكن الأمر، فإنّ المقاومة العربية، باستشهاد قصير وحاوي، تُفْجَعُ اليومَ باثنيْن من مداميكها الأساسية. عزاؤنا أن نُكْملَ درب الحرية التي استُشهدا من أجلها، وأن نَرْحَلَ بفكرهما النقديّ إلى آفاقٍ أَوْسَع وأكثرَ جذريةً. وعزاؤنا أيضًا أن نتذكَّر أنَّ استشهادَ المثقفين والمقاومين الأحرار لن يوقفَ المقاومةَ بمختلف أبعادها، وإلاّ لكانت توقّفتْ بعد اغتيال سعادة وغسان وكمال ناصر وكمال جنبلاط ورياض طه وماجد أبو شرار وحسين مروّة ومهدي عامل وصبحي الصالح وناجي العلي وفرج فودة والعشرات الآخرين. تُرى، ألا تكفي هذه الحقيقةُ، حقيقةُ مواصلة المثقفين والمقاومين لرسالتهم مهما غلَتِ التضحيات، لكي يُفكِّر المجرمُ مرّتيْن قبل أن يَزْرع عبوّةً جديدةً في سيّارةِ مثقّفٍ أو مقاومٍ جديد؟

سماح إدريس

بيروت